الفصل السابع

الحياة الاجتماعية

- تكوين المجتمع العربى.
- الأسرة والمرأة فى الإسلام.
- الـــرق.
- اشتراكية الإسلام.

obeikandl.com

obeikandl.com

تكوين المجتمع العربى

كان للمجتمع العربى الإسلامى سمات واضحة، ومميزات أثرت أثرها العظيم فى حياة المسلمين وحضارتهم؛ فقد كان يسودهم الإخاء والتسامح، وكانوا يتسمون بالحلم، والأدب الجم، والوقار، والرضا بما قسم الله من حظوظ الدنيا؛ فكان حقا مجتمعاً سعيداً هانئاً مطمئنا؛ يقول العلامة جوستاف لوبون: « إن مما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين، وتسليمهم بالأمر الواقع الذى ليس له دافع، والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم، وبين ثورات الأوربيين الدائمة،وهرجهم وتنازعهم الاجتماعى، ومن أظهر ما يتصف به الشرقيون أدبهم الجم، وحلمهم الكبير، وتسامحهم العظيم نحو الناس والأموال، ودعتهم ووقارهم وقناعتهم، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة طمأنينة روحية قريبة من السعادة المنشودة، وقد أورثتنا أمانينا، واحتياجاتنا المصنوعة قلقاً نفسيًّا بعيداً عن بلوغ تلك السعادة »[1].

وكان المجتمع العربى يتكون من عدة طوائف تختلف باختلاف أحوالها، وأقدارها الاجتماعية . من أهمها :

١- كبار رجال الدولة، وكان منهم الخلفاء والأمراء والقضاة ومن إليهم، وكانوا يلون الوظائف الرئيسية، والمناصب الكبرى .

٢- العلماء والأدباء، وهؤلاء كان لهم فى الدولة نفوذ أدبى عظيم، ويتمتعون بمنزلة شعبية مرموقة، وإلى العلماء كان يرجع الناس فى أمور دينهم .

٣- الجند وكانوا يتميزون بملابسهم وزيهم، ولهم ديوانهم الخاص الذى يدون فيه أوصافهم وأعمالهم وأرزاقهم .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٨٦ .

٤- رجال الأعمال كأصحاب الأملاك والتجار والصناع، وهؤلاء كانوا يختلفون باختلاف أحوالهم وثرائهم، ويتميزون بملابسهم، وطرق معيشتهم .

٥- العامة وسواد الأمة . وهم أهل الفلاحة، وأمثالهم وكانوا فى الأغلب من أهل الذمة، ثم شاع فيهم الإسلام، واستعربوا .

٦- أهل الذمة، وهم اليهود والنصارى، الذين ظلوا على دينهم، ولم يدخلوا فى الإسلام، وكان لهم عقد وذمة فى عنق المسلمين .

٧- الخدم وغالبيتهم من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الإسلامية وقد شاع استخدام الرقيق فى عهد الدولة العباسية، وكانت له أسواق من أكبرها سمرقند .

أحوال المجتمع العربى :

١- كانت الحكومة عربية خالصة من بدء الإسلام إلى نهاية عهد الأمويين .

٢- نظر الأمويون إلى غير العرب من أهل البلاد المفتوحة نظرة من يرى أنه أعلى قدراً، وأسمى منزلة - على الرغم من اعتناقهم الإسلام - وأطلقوا عليهم اسم الموالى، وكان لإطلاق هذا الاسم عليهم رغم إسلامهم أثر سيئ فى نفوسهم ظهر فى انضمامهم للعباسيين ضد الأمويين .

٣- تطورت الأحوال، وقامت الدولة العباسية على أيدى الفرس، فعلت منزلة الموالى، وأسند إليهم الكثير من الوظائف الهامة فى الدولة، وأصبح لهم نفوذ واضح لدى الخلفاء العباسيين أثار نقمة العرب عليهم .

٤- فى عهد الخليفة المعتصم دخل العنصر التركى فى الجيش الإسلامى، وصار لهم نفوذ قوى فى المجتمع، وسلطان لا يدافع، إلى حد أنهم كانوا يولون الخلفاء، ويعزلونهم حسب أهوائهم .

٥- وضعت الجزية على أهل الذمة لحمايتهم وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم، على أن ترفع عنهم متى أسلموا، وقد أحسن العرب إليهم وأكرموهم، ولم يضايقوهم فى شىء من أمور دينهم أو دنياهم، قال رسول الله ﷺ : « من قتل معاهداً لمَ يَرح رائحة الجنة [١] » ، ولم ير الإسلام بأساً فى التزوج منهم؛ وكانت علاقتهم بالمسلمين

---

(١) أخرجه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص فى باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، وأخرجه النسائى فى القود عن عمرو بن العاص أيضا .

تقوم على المبدأ الإسلامى الكريم وهو : «لهم مالنا وعليهم ما علينا»؛ فكانت لهم الحرية التامة فى إقامة أماكن عبادتهم وشعائرهم الدينية، ومزاولة شتى الصنائع والحِرَف وما إليهما من أمور الدنيا .

ولم تخصص لهم أحياء فى المدن للإقامة فيها، ولم يمنع تدينهم بغير الإسلام من وصول بعضهم إلى مناصب عُليا فى الدولة، وبخاصة الوظائف الكتابية، وكان للأطباء النصارى من أهل الذمة شأن عند خلفاء العباسيين، كما كان كثير منهم ذا ثراء ظاهر.

واليهود وإن كانوا أقل عدداً من النصارى لكنهم كانوا أحسن حالا منهم لاشتغالهم بالصرافة، وكانت لهم فى بغداد جالية ذات شأن، كثيرة العدد، وكان لكل من اليهود والنصارى رئيسهم الدينى الذى يشرف على شئونهم الدينية .

* * *

الأسرة والمرأة فى الإسلام

المرأة فى نظر الإسلام :

كانت الأمم الخالية تنظر إلى المرأة نظرة احتقار وازدراء؛ حتى إن أهل أثينا – وأمتهم أعظم الأمم القديمة رقيا – عاملوها معاملة سقط المتاع، تباع وتشترى؛ فليس لها أهلية التصرف، ولا تصلح إلا لخدمة البيت، وتربية الأطفال، وهى بعد دنسة ورجس من عمل الشيطان .

وكل ما تمخض عنه المؤتمر الذى عقد فى الولايات الفرنسية سنة ٥٨٦ م هو : أن المرأة إنسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل .

وهكذا ظلت المرأة مجهولة القدر، مجحودة الفضل، ترزح تحت أعباء ظالمة، وتقاليد جائرة؛ فهى فى الصين حبيسة، وفى الفرس مجهولة القدر،وفى مصر حقيرة، وفى أوربا مملوكة،وفى البلاد العربية متاعا يورث [١] ، حتى إذا ما جاء الإسلام أنصفها وبوأها مكانا ساميا :

أ-- أوضح أنها والرجل من أصل واحد، ومن نفس واحدة، فقال تعالى: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ [النساء: ١].

ب – نظر إليها باعتبارها عضوا في المجتمع الإنسانى، كما نظر إلى الرجل، وساوى بينها وبينه فى كل ما فيه صلاح النفوس والأبدان، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ** ﴾ .

---

(١) محمد المثل الكامل للمرحوم الأستاذ محمد جاد المولى .

جـ ـ كرَّمها في أطوار حياتها : كرمها أمًا، وكرمها بنتاً، وكرمها زوجة .

١ـ كرمها أما تكريما ليس وراءه تكريم، فقرن الإحسان إليها بعبادة الله وحده؛ فقال تعالى : ﴿ وقضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وبالْوَالدَيْن إحْسَانًا ﴾[الإسراء : ٢٣]، وقال جل شأنه : ﴿ واعْبُدُوا اللَّه وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسانًا ﴾ [النساء : ٣٦]، وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال : أمك، قال : ثم من ؟ قال : أمك قال ؛ ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك » .

٢ـ كرمها بنتا، فجعل لها نصيبا في الإرث، وعلى أبيها نفقتها حتى تتزوج، ولها الحق في استثمارها عند زواجها، ولها أهليتها في التعاقد، وفي التملك إلى غير ذلك .

٣ـ كرمها زوجة كما يتبين من الكلام على :

الأسرة في الإسلام :

الأسرة تتكون من الرجل وزوجته وأولاده . وهي أساس المجتمع، أو هي مجتمع صغير؛ لذا عني الإسلام بأمرها عناية عظيمة . واهتم بشأنها اهتماماً بالغاً؛ فأحاطها بالرعاية والعناية التي تجعل السعادة تظلها دائماً .

ولكي ترفرف السعادة على هذا المجتمع الصغير، وتحوط الهناءة هذه الأسرة بين الإسلام لكل من أفرادها ما له من حقوق وما عليه من واجبات .

أ ـ فمن حقوق الرجل وواجباته :

١ـ أنه رب الأسرة، والقائم بشئونها، والإنفاق عليها .

٢ـ أن له الحق في التزوج بأكثر من واحدة إلى أربع بالشروط المعروفة في الإسلام؛ من استطاعة النفقة، وعدم الإضرار، وعدم الخوف من الجور، وإلا فواحدة .

٣ـ أباح له الطلاق ولكن بغضه فيه . قال رسول الله ﷺ : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، ولذلك فالمسلم لا يقدم عليه إلا لعذر صحيح، وسبب مشروع .

« وقد كان من حكمة الإسلام، وتمام ملاءمته للسنن الاجتماعية عدم تحريم

الطلاق بتاتاً؛ لأنه ليس شراً على الإطلاق، بل هناك ضرورات تقتضيه؛ ولذلك أبيح بشروط، وفي أحوال معينة. تأمل قوله تعالى: ﴿ **الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾ [البقرة: ٢٢٩] تجد أن الحكمة في جعل الطلاق مرتين إيجاد فرصة للصلح والتفاهم، والصلح خير. على أن الشريعة رأت إجراء التحكيم قبل الطلاق؛ ليتروى كل من الزوجين فيه قبل الإقدام عليه والقطع فيه.

« هل ترى إنصافاً أكثر من أن الشارع الإسلامي، يعلن أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق، وأن الطلاق مرتان. وأن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق. وأن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك؛ لأن الإقدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الأسرة. وله أثر سيء جداً في تربية الأبناء » (١).

٤- أمره أن يعاشر زوجته بالمعروف، وشككه في وجدانه إن هو أحس من نفسه بكراهة لها. فقال سبحانه: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ١٩]، وأي مسلم لا يتأثر مما ذكره الله من توقع الخير الكثير ممن يكرهها؛ فهو ولا شك يتهم نفسه ووجدانه في كراهته لزوجته.

ب - ومن حقوق المرأة وواجباتها :

١- أنه جعل لها على زوجها المهر، والنفقة، والمعاشرة بالمعروف، وأعطاها حرية التصرف في مالها، وجعل أمرها بيدها تطلق نفسها متى شاءت إلى غير ذلك مما يرفع من شأنها، ويحفظ لها كرامتها الإنسانية.

٢- أنه جعل العلاقة بينها وبين زوجها قائمة على معنى إنساني كريم؛ فزوجها يسكن إليها على أساس من المودة والرحمة. قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الروم: ٢١].

٣- جعلها على قدم المساواة مع زوجها في الحقوق والواجبات ﴿ **وَلَهُنَّ مِثْلُ**

---

(١) محمد المثل الكامل الأستاذ محمد حاد المولى ص ١٨٨.

الَّذِي عليهِنَّ بِالْمعْرُوفِ وللرِّجالِ عليهِنَّ درجَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهذه الدرجة ضرورية لنظام البيت؛ إذ إن كل مجتمع مهما كان صغيرا لابد له من مشرف حتى يصلح حاله، ويستقيم نظامه. والرجل فى هذا أقدر من المرأة كما هو رأى عامة الحكماء، وعلماء الاجتماع .

٤- لم يكلفها الشارع بإزاء ذلك عمل شيء حتى إرضاع ولدها؛ فإنه كلف به الزوج .

٥- عليها أن تحفظ زوجها فى عرضه وماله، وأن تعمل ما فى وسعها لسعادته وهناءته؛ ففى سعادته سعادتها، وفى هناءته هناءتها، وعامة ما وجب عليها للزوج ليس فيه عمل إيجابى، ولكنه ترك ليس فيه عناء عليها، ولا مشقة، بل فيه صون شرفها، ورفعة منزلتها .

والأولاد هم ثمرة الزواج وغايته، وزينة الحياة الدنيا وبهجتها .

جـ- ومن حقوقهم وواجباتهم :

١- أن يقوم الوالدان بتربيتهم، وتنشئتهم تنشئة صالحة، حتى ينفعوا أنفسهم ووطنهم .

٢- وعليهم أن يعرفوا حق الوالدين عليهم وأن يبروهما، وقد عنى الإسلام ببر الوالدين والإحسان إليهما عناية بالغة حتى إنه قرن الإحسان إليهما بعبادته فى أكثر من آية من كتابه الحكيم فقال جل شأنه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء: ٣٦]، والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

* * *

الـــــرق

الرق فى اللغة الضعف ومنه رقة القلب، وعند فقهاء المسلمين ضعف معنوى، وعجز حكمى شرع فى الأصل جزاء عن الكفر [١] أما عند الفرنجة فهو «حرمان الشخص حريته الطبيعية وصيرورته ملكا لغيره» .

وسببه أن الناس قد ضروا على التنازع، والشقاق، والتنافس، وذلك بطبيعته مفض إلى القتال، واستئصال الغالب شأفه المغلوب، واحتوائه على ما فى حوزته من ناطق وصامت، وماله من نساء وأموال [٢] .

والرق معروف منذ أقدم عصور التاريخ؛ فقد كانت شعوب العالم حتى شعوب الحضارة القديمة: من المصريين، والبابليين، والفرس، والهنود، واليونان، والرومان، والعرب وغيرها تتخذ الرقيق، وتستخدمه فى أشق الأعمال، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم .

كذلك أجازته كل الديانات القديمة؛ فقد ورد فى التوراة الإصحاح (٩) تكوين: أن نوحا عليه السلام دعا على ابنه كنعان بأن يكون عبداً؛ فقال: «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته (٢٥) مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم» (٢٦).

وقد كان إبراهيم عليه السلام صاحب عبيد وإماء، وكانت هاجر أمة لزوجته سارا، وفى التوراة الإصحاح (١٤) تكوين «(١٤) فلما سمع إبرام أن أخاه سبى غلمانة المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر، وتبعهم إلى دان (١٥) وانقسم عليهم ليلا هو وعبيدة فكسرهم وتبعهم إلى خوبة التى عن شمال دمشق».

---

(١) أما إنه عجز فلأنه لا يملك ما يملكه الحر من الشهادة والقضاء وغيرهما، وأما إنه حكمى فلأن العبد قد يكون أقوى فى الأعمال من الحر . التعريفات للجرجانى، الاختيار لابن مودود الموصلى، محمد المثل الكامل للأستاذ محمد جاد المولى .

(٢) تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

وقد كان فى الشرائع القديمة المعمول بها المعروفة عند المصريين، وأهل سورية أن المرء إذا عمل ذنبا جوزى بالاستبعاد؛ فقد جاء الإصحاح (٤٤) تكوين فى شأن اتهام إخوة يوسف بسرقة طاس الملك أن قال القائل لإخوة يوسف: « (١٠) فقال نعم الآن بحسب كلامكم هكذا يكون الذى يوجد معه يكون لى عبدا »، وفى الإصحاح المذكور (١٧) « فقال: حاشا أن أفعل هذا الرجل الذى وجد الطاس فى يده هو يكون لى عبدا » [١].

وقد أجازت الشريعة الموسوية الرق، ولم تضع نظاماً للتخلص منه، أو أى شىء يعين على ذلك إلا إذا كان العبد عبرانيًّا فى يد عبرانى، أو فى يد غريب مستوطن بينهم، وقد فصل ذلك فى الإصحاح (٢١) من سفر الخروج، والإصحاح (١٥) تثنية، والإصحاح (٢٥) لاويين .

والمسيح عليه السلام لم يتعرض للأرقاء بكلمة، ولم يبين حكما من أحكام تحرير الأرقاء، أو شيئاً مما ينحو نحو ذلك، ولما جاء زمن الرسل قال بولس الرسول فى رسالته إلى أهل أقسس [٢] إصحاح (٦) : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح » [٣] .

جاء الإسلام والرق معروف منتشر فى كل الأمم [٤] « والظروف الاجتماعية

---

(١) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

(٢) أقسس مدينة قديمة فى آسيا الصغرى وهى شهيرة بهيكل ديانا الذى يعد من عجائب الدنيا السبع .

(٣) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

(٤) ظل منتشرا حتى بعد أن صدر فى مارس سنة ١٦٨٥ مرسوم بتنظيم أحوال الأرقاء والعتقى فى المستعمرات الفرنسية؛ فإن هذا المرسوم قد صادفته معارضات قوية عند التطبيق أضاعت خيره، وأبقت شره، وقضى على الرقيق بأنه لا نفس له ولا روح ولا إرادة . هكذا كان حال الاسترقاق فى العالم إلى أواخر القرن الثامن عشر حيث حررت أمريكا رقيقها، وتلتها انكلترا باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر . ولم يكن ذلك من هاتين الدولتين عملا خالصا لمصلحة البشر عامة . ولا جنوحا للمساواة بين الناس جميعا؛ فإن لهما فى ذلك مصالح خاصة؛ لأن التفرقة العنصرية والمعاملة السيئة للزنوج فى أمريكا ما زالت إلى يومنا هذا تخجل جبين كل أمريكى يتغنى بالحرية والمساواة . وما زال الإنجليز فى جنوبى أفريقيا يدينون بالتفرقة الظالمة بين البيض، وأهل البلاد الأصليين على الرغم من استنكار العالم كله بذلك . وغيرهما من الأوربيين المستعمرين شر منهما ظلما وقسوة واحتقارا لغيرهم من أهل البلاد المغلوبة على أمرها. راجع كتاب محمد المثل الكامل للمرحوم الأستاذ محمد جاد المولى ص ٢٠٨ وبعدها.

والاقتصادية التى كانت تكتنف العالم فى العصر الذى ظهر فيه الإسلام كانت تحتم على كل شارع حكيم أن يقر الرق فى صورة ما، وتجعل كل محاولة لإلغائه إلغاء سريعا مقضيًا عليها بالفشل والإخفاق»[١]. فلم يكن من الحكمة، ولا من الإصلاح للمجتمع إلغاؤه طفرة، ومفاجأة العالم بإبطاله دفعة واحدة . لأنه كما ذكرنا أمر تأصل بتقرير الشرائع السماوية والأرضية، وتمسك الناس به أحقاباً وقروناً، واتخذوه أصلا من أصول مدنياتهم، ولو فاجأهم الشرع الإسلامى بذلك لأحرج صدورهم، وألجأهم إلى الاحتجاج بقواعد الشرائع السابقة الإلهية، والوضعية، ووقوفهم موقف المدافع المعاند[٢].

وماذا عسى يكون موقف الإسلام لو أبطله طفرة واحدة وخصومه يسترقون ما يقع فى أيديهم من المسلمين ؟ وكيف نطلق أسراهم فى الوقت الذى يسترقون فيه أسرانا ؟ مع أننا نعامل الأسرى معاملة كريمة رحيمة . حقًا إن المنطق السليم لا يقر ذلك؛ لأن التوازن والتكافؤ بين الإسلام وخصومه ينعدم بتاتاً، ويكون الدخول فى الإسلام معناه الرضا بالرق والذل والهوان، ويكون المحارب للمسلمين آمنا على نفسه وأولاده؛ لأن المسلمين لا يسبونهم إذا تمكنوا من سبيهم، ولا يضربون عليهم الرق، وهذه حال لا يقبلها إلا من سفه نفسه .

وكيف يفادى المسلمون أسراهم ومن أين ؟ وكثيراً ما كان يحصل بين المسلمين والروم فداء الأسرى بمثلهم، وبخاصة فى أيام الخليفة المتوكل، ومَن بعده من خلفاء بنى العباس[٣].

لهذا كانت الحكمة تقضى بوضع أحكام تمهد لزواله بالتدريج، لا لإلغائه دفعة واحدة، وهذا ما جاء به الإسلام؛ فإنه لم يقر الرق إلا فى صورة تؤدى هى نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج، بدون أن يحدث ذلك أى شىء فى نظام المجتمع الإنسانى، بل بدون أن يشعر أحد بتغيير فى مجرى الحياة[٤].

---

(١) الإسلام والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى .
(٢) محمد المثل الكامل للأستاذ محمد جاد المولى .
(٣) راجع تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النحار .
(٤) الأسرة والمجتمع للدكتور على عبد الواحد وافى .

معاملة الرقيق والإحسان إليه :

نظر الإسلام إلى الرقيق نظرة كريمة، وعامله معاملة رحيمة، وحث على الإحسان إليه حتى قرن ذلك بعبادته وبالإحسان إلى الوالدين، فقال تعالى : ﴿ **واعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ** ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال ﷺ : «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم؛ فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه» ، وقال ﷺ : «اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم»، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تحث على رعايته والإحسان إليه .

سبل التحرير والترغيب فيه :

ظهر الإسلام فكان مما أصلحه من فساد رفع الظلم عن الرقيق، والإحسان إليه، وسن الأحكام وتبين السبل التى تمهد لزوال الرق بالتدريج، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً فى نظام الاجتماع البشرى؛ فالولايات المتحدة لما حررت رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد ما يحسنه، أو يقدر عليه؛ فيعود إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان، وكذلك كان الأمر فى السودان بعد افتتاحه والقضاء على دولة التعايشى فى سنة ١٨٩٩، فإن القواد والحكام الإنجليز أسرعوا إلى إعلان الحرية للأرقاء؛ فلم يمض على ذلك أسبوع حتى رأوا أنفسهم أمام مشكلة اجتماعية واقتصادية، واضطروا إلى الإذن لهم بالرجوع إلى سادتهم، على ألا يسمح لهم ببيعهم والاتجار بهم .

هذه دلائل حسية على أن إبطال الرقيق – الذى كان عاما فى البشر – دفعة واحدة بتشريع دينى لم يكن من الحكمة، ولا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها، والإسلام تشريع عملى، فما شرعه فى الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة الجامع بين المصلحة العامة والرحمة؛ فقد رغب المسلمين ترغيباً شديداً فى تحريرالرقاب، وإزالة الرق عنها [١] وإليك بعض وسائله فى ذلك :

---

(١) راجع الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا، تاريخ الإسلام للمرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

١ – جعله من أول الواجبات على الإنسان إذا أراد أن يشكر الله على نعمائه: فقال في سورة البلد المكية ممتنا عليه: ﴿ **ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين * فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أو إطعام في يوم ذي مسغبة * يتيما ذا مقربة * أو مسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة** ﴾ [البلد: ٧–١٨]؛ فجعل فك الرقبة في مقدمة الخصال التي يقوم بها الإنسان لشكر نعم الله المتتالية عليه، وجعل من يفكها من أصحاب الميمنة .

٢ – لما بين مصارف الزكاة جعل لفك الرقاب سهما من ثمانية فقال: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدقاتُ لِلفُقراءِ وَالْمَساكِينِ والْعَاملِين عليْهَا وَالْمُؤلَّفة قُلُوبُهُمْ وفِي الرِّقَابِ والْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فريضَةً مِّنَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ فقد نصت الآية على أن مصارف الزكاة ثمانية أحدها فك الرقاب .

٣ – جعل تحرير الرقاب في مقدمة كفارات كثيرة لذنوب ترتكب؛ فقال في كفارة القتل :﴿ **ومن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ** ﴾ [النساء: ٩٣].

وقال في كفارة الظهار :﴿ **وَالَّذِين يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُون لِمَا قَالُوا فَتحرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قبلِ أن يَتماسّا** ﴾[المجادلة: ٥].

وقال في كفارة اليمين: ﴿ **فَكَفَّارَتُهُ طَعَامُ عَشرَةِ مساكِين مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُون أَهْلِيكُمْ أو كِسوتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رقبةٍ** ﴾ [المائدة: ٨٩].

٤ – وألزم من نذر تحرير رقبة – إن نال ما يرجوه، أو سلم مما يخشاه – بالوفاء بما نذر متى تم له مراده .

٥ – رغب في الكتابة؛ فقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَاب مِمَّا ملَكتْ أَيمانُكُم فكاتِبُوهُم إنْ عَلِمتُم فِيهِم خَيراً** ﴾ [النور: ٣٣].

٦ – وجعل عتق البعض يسرى إلى الكل، فمن أعتق بعض عبده سرى العتق إلى باقيه .

٧- جعل العبد المدبر يعتق بموت السيد .

٨- جعل أمهات الأولاد كذلك يعتقن بموت سادتهن، ولا يجوز بيعهن ولا إرثهن فى حياتهم .

٩- وجعل من ملك ذا رحم محرم يعتق عليه، قال ﷺ : « من ملك ذا رحم محرم منه فهو حر » (١) .

١٠- وجعل العتق لازما لمن تلفظ بصيغة العتق جادًا أم هازلا لقوله ﷺ : « ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد : النكاح والطلاق والعتاق » .

١١- وجعل دفع القيمة فى الإعتاق غير جائز .

ذلك كله فضلا عن الترغيب الكثير فى تحرير الرقاب، والوصايا المتكررة برحمة الأرقاء .

ومن هذا يتضح أن الإسلام قدر الإنسان قدره، ورفع مستواه وكرمه، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وعنى بالحرية عناية لم تصل إليها أمة من الأمم، ولا دين من الأديان السماوية، وسلك فى سبيل ذلك أحكم الوسائل، وأبلغها أثراً، وأصدقها نتيجة، فضيق روافد الرق التى تمده، وتكفل له البقاء، وأكثر منافذ الخلاص منه، ووسائل القضاء عليه .

* * *

---

(١) رواه أبو داود .

اشتراكية الإسلام

الكلام على اشتراكية الإسلام يدعونا إلى أن نلم إلمامة خفيفة بالنظام الاشتراكى، وبعض النظم الأخرى السائدة فى العالم اليوم .

نشأة الفكرة الاشتراكية.

« إن الفكرة الاشتراكية التى نشأت منذ ألوف من السنين إنما نشأت صيحة ألم لما بين الناس من التفاوت فى حظهم المادى من الحياة » (١)، وتنفيسا عما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان، وهذه الفكرة « كانت ترمى دائما إلى محو هذا التفاوت حتى تقضى على نتائجه الاجتماعية، وفى طليعتها التباغض، والحسد، والنضال المستتر حينا، الواضح حينا آخر، وحتى تزيل ما يشعر به المحرومون من ألم الحرمان » .

« وطالما تحدث العلماء والكتاب الاشتراكيون عن هذا التفاوت فى حظوظ الناس، ونسبوه إلى فساد النظم التى تقوم الجماعات الإنسانية عليها، وليس يحدثنا التاريخ الذى نعرفه عما كان قبل أفلاطون (٤٠٠ ق.م) من صور الاشتراكية؛ ولذلك ألف كثيرون أن ينعتوا أفلاطون « أبا الاشتراكية »، ومن يومئذ إلى يومنا الحاضر لم يفتأ الاشتراكيون يتحدثون فى هذا التفاوت وفى وسائل إزالته، ويقيمون من المذاهب، ويقترحون من النظم ما يرونه كفيلا بتحقيق الغاية التي يرمون إليها » (٢) .

« ولقد أثبت تعاقب القرون أن إزالة هذا التفاوت أمر غير مستطاع، وأن إقامة الاشتراكية على أساس من المساواة بين الناس فى حظوظهم المادية لا يزيل الظلم الذى يذكرونه » ؛ إذ إن ميول الناس، ونظرتهم إلى الحياة تتفاوت، واستعدادهم وقدرتهم على العمل تتفاوت، ومتاعهم بنعم الحياة يتفاوت؛ ففيهم القوى والضعيف وفيهم الصحيح والمريض، وفيهم المتهالك على لذائذ الحياة ومتعها، ومن يرى الزهد لذة

(١ ، ٢) الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة للمرحوم محمد حسين هيكل ص٥٥، ٥٦ .

تفوق كل لدة فى هذه الحياة، ولا سبيل إلى التسوية بين هؤلاء جميعا، وعلى أساس يرضى الجميع عنه [1] .

تعدد النظم الاشتراكية .

والاشتراكية متعددة النظم والصور، فمنها الاشتراكية المعتدلة، ومنها الاشتراكية المتطرفة إلى اليسار التى تمعن فى إضعاف رأس المال الفردى، وهذه إذا زادت فى الإمعان واشتطت فى التطرف آلت إلى الشيوعية، ومنها الاشتراكية المتطرفة إلى اليمين التى تجنح إلى تخفيف الرقابة عن الملكية الفردية ورأس المال الفردى، وهذه إذا تغالت، وتجاوزت المدى فى تطرفها آلت إلى الرأسمالية .

الشيوعية :

فالشيوعية «صورة من صور الاشتراكية الكثيرة المتباينة، وهى أكثر صورها تطرفاً، وأشدها إمعاناً فى إنكار الملكية الفردية؛ وهى بذلك تكون فى الطرف المقابل للرأسمالية، لأنها ترى :

١- إلغاء الملكية الشخصية [2] وأن تكون الثروة ملكا للدولة؛ فهى التى تملك جميع رءوس الأموال من زراعية وصناعية ومعدنية وغير ذلك، وبصفة عامة تملك كل ما يملك إلا ما يستعمله الفرد لاستهلاكه الشخصى .

٢- على كل فرد أن يعمل؛ فمن لا يعمل لا يأكل، والدولة هى التى توفر لوازم العيش من مأكل ومسكن وغير ذلك .

٣- قيام الدولة بجنى ثمرات العمل، وتوزيعها على الجميع؛ وبذلك تحل الدولة محل الأفراد فى الملكية والإنتاج والتوزيع .

---

(١) المصدر السابق ص ٥٦ .

(٢) إن اعتراف الشيوعية - التطبيقية - أخيرا بالملكية الشخصية ولو في حدودها الضيقة تأكيد لبطلان زعمها النظرى، وذلك كما جاء فى الدستور السوفيتى المعدل . المواد ٧، ٩، ١٠ هذا فضلا عما تشعر به العقول بداهة من بطلان هذا الزعم - راجع كتاب اشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعى .

٤ - تطبيق نظام الأجور الذى وضعه لينين: (من كل حسب قدرته إلى حسب حاجته) [١] .

٥ - وأخيرا لاإله، والحياة مادة .

الرأسمالية :

الرأسمالية صورة أيضا من صور الاشتراكية التى تغالت فى تطرفها :

١- وهى كمذهب اقتصادى تعطى الفرد حق التملك [٢] ، وتطلق العنان لرءوس الأموال .

٢- تفسح المجال للتنافس [٣] فى ميدان الإنتاج .

٣- وهى كواقع سياسى ملوثة بدماء الشعوب، وهى الباعث الأول للاستعمار، تنبعث منها روائح الاستعباد، واللصوصية، واستغلال ثروات الشعوب المستعبدة، وامتصاص خيراتها [٤] .

النظام الاشتراكى الديمقراطى التعاونى :

وهذا النظام من أوفق النظم الاشتراكية وأعدلها، وهو النظام الذى اختارت الجمهورية العربية المتحدة أن تسير عليه وتعمل به، ومن أسسه :

١- أنه يحفظ للدين حرمته وقدسيته .

٢- أنه يحفظ للأسرة كيانها .

---

(١) تراجعت الشيوعية عن هذا المبدأ الأصيل فيها، وعدلته، فى الدستور الجديد (من كل حسب قدرته إلى كل حسب عمله) .

(٢) حق التملك فى النظام الرأسمالى يخضع الجماعة لمصلحة رأس المال بخلافه فى الإسلام؛ فإنه يخضع حق التملك لمصلحة الجماعة .

(٣) تنافس الرأسمالية من شأنه أن يشيع العداء والخلاف والاضطراب فى المجتمع بخلاف التنافس فى الإسلام؛ فإن من شأنه أن يشيع الحب والتعاون والهناء فى المجتمع . راجع اشتراكية الإسلام للدكتور السباعى .

(٤) راجع مقال الدكتور على عبد الواحد وافى منبر الإسلام العدد ٦ من السنة ١٩ ، اشتراكية الإسلام للدكتور السباعى ص ١٦٥ ، الشيوعية فى الميزان للسيد مصطفى السباعى .

٣ أنه يحفظ للملكية الفردية أصلها ووسائلها وضماناتها .

٤ - أنه يحفظ لرءوس الأموال استثماراتها .

٥- أنه لا يرى بأساً من تدخل الدولة فى شئون الأفراد بغية الوصول إلى إصلاحات اجتماعية واقتصادية يستلزمها الصالح العام (١) .

ومن هذا يتضح أن الاشتراكية العربية من الاشتراكات المعتدلة، ومن أوفقها للشعوب، وأن الفرق كبير بينها وبين كثير من النظم السائدة فى العالم ولا سيما الماركسية اللينينية، وقد أوضح السيد / الرئيس جمال عبد الناصر الفرق بين الإشتراكية العربية، والشيوعية (٢) فقال: إن الفروق الأساسية هى:

١- إن اشتراكيتنا تؤمن بالله ورسله والكتب السماوية، والماركسية بعكس ذلك لا تؤمن بالله، وتعتبر الدين أفيون الشعوب .

٢- اشتراكيتنا تدعو إلى الانتقال من دكتاتورية الرجعية إلى ديمقراطية الشعب، والماركسية بالعكس تقول: بالانتقال من ديكتاتورية الرجعية إلى ديكتاتورية البروليتاريا (٣) .

٣- اشتراكيتنا تفرق بين الملكية الخاصة المستغلة؛ والملكية الخاصة التى لا تستغل؛ فغير المستغلة نؤمن بها ونصونها، بخلاف الماركسية التى لا تؤمن بالملكية الخاصة حتى غير المستغلة؛ فليس فى اشتراكيتنا كل من يملك ضد المجتمع، وضد الشعب كما يرى المذهب الماركسى .

٤- اشتراكيتنا تجرد الرجعية من أسلحتها بالطرق السلمية، وتترك للأفراد فرصة العيش الكريم؛ وبهذه الوسائل السلمية أيضاً تحل التصادم والتناقض فى المجتمع، أما الماركسية فتنادى باستخدام العنف، وإراقة الدماء فى سحق هذه الطبقة .

---

(١) العدالة الاجتماعية للأستاذ عبد الرحمن نصير وكيل مجلس الدولة .

(٢) كان ذلك فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية المنعقد بالقاهرة فى ٣٠ / ٥ / ١٩٦٢ صحيفة الجمهورية عدد رقم ٣٨٠٣ الخميس ٣١ / ٥ / ٦٢ ، والأهرام عدد رقم ٢٧٥٦٤ الخميس ٣١ / ٥ / ١٩٦٢ .

(٣) (الطبقة العاملة والفقراء الذين لا يملكون شيئا) .

٥- اشتراكيتنا تؤمن بالملكية فى الأرض فى إطار من التعاون، والماركسية تنص على تأميم الأرض، ولا تتصور ملكيتها .

والنظم الاشتراكية في عمومها نظم وسطى بين الشيوعية والرأسمالية تأخذ ما فيهما من محاسن، وتبرأ مما ينطويان عليه من مثالب؛ فهى نظم إصلاحية تعالج ما بالمجتمع من عيوب، وهدف لإصلاح الفرد وتحريره .

ومهما يكن من كثرتها وتعددها فالذى لا شك فيه أن هناك روحا عامة لهذه النظم يمكن تلخيصها فى ثلاث نقط :

الأولى : تحقيق استخدام الموارد الاقتصادية استخداما يزيد الإنتاج حتى تكون زيادة الإنتاج فى ذاتها من عوامل زيادة الإشباع الذى يحصل عليه المجتمع فى مجموعه.

الثانية: تحقيق درجة من العدالة فى توزيع الثروة والدخل بين الناس، وهى درجة تختلف قوتها، ومداها بحسب نظرة كل مفكر، أو كل مصلح أو كل سياسة اشتراكية.

الثالثة: التخلص من تحكم فئة،أو طبقة فى فئة أو طبقة أخرى .

ومن الواضح أن هذه النقطة الأخيرة نتيجة طبيعية للنقطتين الأوليين .

هذه هى السمات العامة للاشتراكية فأين يأتى الإسلام بينها ؟

الواقع أن الإسلام كنظام اجتماعى، واقتصادى يحتوى على جانب اشتراكى كبير، وذلك بالنسبة للنقط الثلاث التى أشرنا إليها .

ويمكن القول بصفة عامة فى هذا الصدد بأن فلسفة الإسلام كلها تقوم على تحقيق توازن سليم بين الفرد والمجتمع؛ فالإسلام يعترف بالفرد كوحدة اجتماعية، ويعترف به على أنه صاحب إرادة سياسية تشكل الوضع السياسى فى المجتمع فى حدود المبادئ الأساسية التى وضعها الدين، وهى : يعطى للفرد أيضا حق الملكية، وحق التمتع بثمرات ملكيته، ولكنه فى كل ذلك يضع حدودا وقيودا على إرادة الفرد، وعلى مباشرته لملكيته بحيث يتحقق توازن سليم بين الفرد وحقوقه، وبين وجود

المجتمع ومستلزماته. وفي هذا النطاق تأتى المظاهر الاشتراكية فى الإسلام [١]» وأوضح ما تكون هذه المظاهر فى النواحى الاقتصادية، ولا عجب فى ذلك، والنظام الاجتماعى فى عهدنا الحديث بنوع خاص يقوم على أساس اقتصادى صرف، وعلاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقات الأمم بعضها ببعض تخضع خضوعا تاما لما بينها من صلات اقتصادية. وقد أقام كثير من الفلاسفة قواعد الخلق على أساس اقتصادى، وقد نادى كثيرون بأن تاريخ الإنسانية لا تفسير له إلا فى نظمها الاقتصادية، وأن حضارات العالم فى الأزمان المختلفة إنما تكيفت بتطور نظم العالم الاقتصادية» [٢].

ومن المظاهر الاشتراكية فى الإسلام :

١- أنه أقر الملكية الفردية، وأباحها لاتفاقها مع غريزة التملك الطبيعية فى الإنسان، إلا أنه لم يبحها فى جميع الأشياء، بل أخرج من نطاقها الأشياء الضرورية لجميع الناس، وأوجب أن تكون ملكيتها جماعية، حتى لا يستبد بها فرد، أو أفراد، فيضار المجتمع من جراء ذلك .

وقد عدد النبى ﷺ من هذا النوع أربعة أشياء: الماء والكلأ والنار والملح، قال ﷺ : «المسلمون شركاء فى ثلاث: فى الماء والكلأ والنار» [٣] وفى رواية لأبى داود: والملح . وخصت هذه الأنواع الأربعة لأنها كانت من ضروريات الحياة الاجتماعية، وقاس عليها العلماء ما يشبهها مما يكون نفعه عاما، ويكون من ضروريات الحياة للناس جميعا كالمعادن التى يعثر عليها فى باطن الأرض [٤] .

كما أجاز الإسلام لولى الأمر نزع الملكية الفردية، وجعلها ملكية جماعية إذا اقتضى ذلك صالح الجماعة .

وقد هدم عمر رضى الله عنه دوراً كانت حول المسجد الحرام لتوسعته حينما رأى مصلحة المسلمين فى ذلك .

---

(١) من مقال للدكتور محمد شعير فى منبر الإسلام العدد ١ من السنة ١٩ .

(٢) الإمبراطورية الإسلامية للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ص ٥٦ .

(٣) رواه ابن ماجه فى الأحكام عن ابن عباس، ورواية إحلال: الناس بدل المسلمين . وراجع الخراج لأبى يوسف ص ٥٥ ط الأميرية .

(٤) راجع المغنى لابن قدامة جـ ٥ ص ٥٢٠ وبعدها .

وإذ كانت مصلحة الجماعة فوق مصلحة الفرد قامت الجمهورية العربية بتأميم المصارف، وبعض الشركات الصناعية والتجارية بعد أن تبين أن تركها للملكيات الخاصة، وأهواء أصحابها يؤدى إلى أضرار بليغة بالصالح العام، ،ذكر السيد الرئيس فى الخطاب الذى ألقاه فى العيد التاسع للثورة أن هذه الإجراءات تتسق مع روح الإسلام وتشايعه، مستدلا بما قرره النبى ﷺ فى صدد الماء والكلأ والنار والملح؛ إذ جعل ملكية هذه المواد ملكية جماعية؛ لحاجة جميع الناس إليها فى المجتمع العربى.

٢- أنه حرم جميع طرائق الكسب التى تقوم على الرشوة، أو استغلال النفوذ، أو الغش، أو أكل أموال الناس بالباطل، أو ما إلى ذلك؛ إذ إن الملاحظ أن الأرباح الفاحشة، والثروات الضخمة إنما تكون فى الغالب نتيجة للكسب غير المشروع؛ وبتحريم مثل هذه الطرائق حقق الإسلام عدة أغراض إنسانية، واجتماعية هامة منها :

أنه أجاز لولى الأمر مصادرة المال الذى جاء عن طريق استغلال النفوذ، وإنفاقه فى المصالح العامة للمسلمين؛ وبذلك كان الإسلام أول من سن قانون «الكسب غير المشروع» ، أو قانون «من أين لك هذا ؟»[1] .

ومنها أن تقوم العلاقات الاقتصادية بين الناس على دعائم من التكافل والتعاون، والتراحم والتعاطف .

ومنها حمل الناس على العمل والكد لكسب المال وتنميته بالطرق المشروعة . والحث على العمل استأثر بكثير من الآيات الكريمة والأحاديث والآثار، واعتبر نوعا من العبادة فى بعض الحالات، ولمثل هذه الاعتبارات الطيبة حرم الإسلام الربا تحريما قاطعاً وجعله من أكبر الكبائر، وآذن آكله بحرب من الله ورسوله، فقال سبحانه: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. ورغبة فى التعاطف والتراحم حث الدائنين على حسن الاقتضاء فقال جل شأنه: ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ**

---

(١) وقد كتبنا فى ذلك مقالا فى صحيفة الأهرام فى سنة ١٩٥٠ ، كما أشرنا إليه فى المحاضرة التى ألقيناها فى قاعة الإمام محمد عبده فى ٢٨ من شوال سنة ١٣٨١ وراجع ما تقدم فى ص ٤٨ .

ميسرة ﴾[البقرة: ٢٨٠] بل ورغب فيما هو أسمى وأفضل من ذلك فحبب إلى الدائنين أن يتنازلوا عن دينهم، أو عن جزء منه؛ فقال عز من قائل: ﴿ **وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ [البقرة: ٢٨٠] .

ولما للمعاملات الربوية من آثار بالغة الخطورة فى حياة الجماعة أخذت الجمهورية العربية تعمل على إزالة هذه الآثار السيئة من مجتمعنا العربى الإسلامى وقال السيد الرئيس فى الخطاب الذى ألقاه فى الذكرى التاسعة للثورة: «لقد أخذنا على أنفسنا أن نققيم مجتمعاً تعاونيًا نظيفاً، ولا يمكننا أن نقيم هذا المجتمع التعاونى النظيف ما دامت معاملاتنا تقوم على الربا . وسنعمل على القضاء على الربا فنجرب إلغاءه فى بنك التسليف؛ فنقرض الفلاحين بدون فائدة» ؛ فقد قصد السيد الرئيس إلى جانب رعايته الرحيمة للفلاحين، وتخفيف الأعباء أن يكون خطوة إيجابية فى سبيل الرجوع بمعاملاتنا إلى أوضاعها الشرعية السليمة، وتخليصاً مما انتقل إلينا فى عهود الاستعمار من مناهج الغرب الاقتصادية الفاسدة .

٣- أنه جعل للأسرة - وهى مجتمع صغير - نظاما حكيما يقوم على المودة والرحمة ورعاية الواجب؛ فسعدت الأسرة الإسلامية وهنئت كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم عند كلامنا عن الأسرة فى الإسلام .

٤- أنه شرع للميراث نظاما فريداً حكيما يضمن تقسيم تركة المتوفى بين عديد من ذوى قرابته؛ وبذلك لا تتضخم الثروات، وتتجمع فى أيد قليلة، فأين هذا النظام الإسلامى الحكيم من تلك النظم التى ينقل بعضها جميع ثروة المتوفى إلى البكر من أولاده .

٥- أنه حرم على المالك كل تصرف فى ملكه يؤدى إلى ضرر بالغير، أو ينطوى على اعتداء على حقوق الآخرين، وأجاز نزع الملكية من صاحبها إذا أساء استعمال حقه فيها، ولم يكن ثمة وسيلة أخرى لمنعه من ذلك، وقد قدمنا فى باب القضاء أن لقاضي الحسبة منع الحمالين، وأهل السفن من الإكثار فى الحمل، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة . فلا ضرر ولا ضرار فى الإسلام، فيجب ألا يترتب على استعمال المالك لملكه ضرر لغيره، وعلى

هذه القاعدة بنى نظام الشفعة فى الإسلام، وهو تقييد لحرية المالك فى بيع عقاره لمن يشاء حماية للشريك، أو الجار من الضرر .

وقد طبق النبى عليه الصلاة والسلام هذا المبدأ تطبيقاً عمليًّا؛ فعن سمرة بن جندب «أنه كانت له عضُد من نخل فى حائط (بستان) رجل من الأنصار قال: ومع الرجل أهله، قال: فكان سمرة يدخل إلى نخله فيتأذى به، ويشق عليه، فطلب إليه أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله (يبادله) فأبى؛ فأتى النبى ﷺ؛ فذكر ذلك له؛ فطلب إليه النبى ﷺ أن يبيعه فأبى، فطلب إليه أن يناقله فأبى، قال: فهبه له ولك كذا وكذا - أمراً رغبه فيه - فأبى؛ فقال: أنت مضار، فقال رسول الله ﷺ للأنصارى: اذهب فاقلع نخله» (١) .

وكذلك فعل خليفته عمر رضى الله عنه مع محمد بن مسلمة الذى أبى أن يمر الماء بأرضه ليمكن أن يصل إلى أرض جاره . فقال له عمر: أعليك فيه ضرر ؟ قال: لا . فقال له: «والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته» (٢)؛ فنظرية «عدم التعسف فى استعمال الحق» التى يتمشدق بها رجال القانون الوضعى فى العالم الآن عرفها الإسلام منذ فجر ظهوره .

٦- أتى بأحكام تحرك الإنسان عن طريق عقيدته لمساعدة الفقراء والمعوزين، وتجعل فى أموال الأغنياء حقًّا معلوماً للسائل والمحروم مما يجعل التعاون والمحبة، والتعاطف والتراحم تسود بين أفراد المجتمع الإسلامى؛ وبذلك لا تجد النظم المتطرفة كالشيوعية مثلا طريقاً إلى مجتمعنا.

٧- كذلك جاءهم بأحكام تجعلهم يشعرون بشعور واحد، وتصورهم مرة بالبنيان الذى يشد بعضه بعضا، وأخرى بالجسد الذى يتداعى بالسهر والحمى إذا اشتكى عضو منه، بل إنه ارتقى فى ذلك إلى حد الإيثار . قال تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة: ٢]، وقال سبحانه:

---

(١) سنن أبى داود جـ ٥ ص ٢٣٩ من كتاب الأقضية .

(٢) كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ص ١١٠ - ١١٢ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال جل شأنه: ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]، وقال عز وجل: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، وقال ﷺ: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»، وقال صلوات الله عليه: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك بين أصابعه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته»، وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «إن الأشعريين إذا أرملوا [١] فى الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية؛ فهم منى وأنا منهم» [٢] ومن هذه الآيات والأحاديث وغيرها يوجد ويتجلى التكافل الاجتماعى بأوسع معانيه.

٨- وأخيراً جعل التقوى ميزان التفاضل بين الناس، فليس المال والنسب، واللون والجاه والحسب، وما إلى ذلك مما يعتد به أهل هذه الحياة الدنيا يصلح أن يكون مقياساً للتفاضل. قال جل شأنه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ﷺ: «ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى»؛ فالناس جميعاً من أصل واحد، ومن نفس واحدة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾. [النساء: ١] والتقوى ميزان دقيق يزن بالقسطاس المستقيم، ويضبط علاقة الإنسان بربه، وعلاقته بغيره، في بيته، وفى مجتمعه، وفى أمته؛ فهل بعد هذا يُدل إنسان على إنسان، أو يسيطر إنسان على إنسان؛ لما لَه من مال، أو جاه، أو يفاخر بحسبه أو نسبه! اللهم إنه الإسلام دين المساواة والعدالة، والتراحم والتعاطف، والمحبة والإيثار.

---

(١) أرملوا فرغ زادهم، أو قارب الفراغ.
(٢) رواه البخارى فى كتاب المظالم.

ومن السهل بعد هذا أن ندرك ما بين اشتراكية الإسلام، وكل من الشيوعية والرأسمالية من فروق هائلة، بل من تقابل وتضاد أحياناً كثيرة .

وهكذا يتضح أن اشتراكية الإسلام نظام نسيج وحده لا يدانيه نظام آخر فى دقته وسموه، ومبلغ تحقيقه لخير الأفراد والجماعات، له مقوماته، وله مثاليته الخاصة به، وهو أخيراً تنزيل من حكيم خبير؛ ومن ثم فمهما أطلنا عن هذه الاشتراكية، وضربنا لذلك المثل فلن نصل إلى الغاية، ولن نبلغ النهاية؛ ولذا فإنا نكتفى بما ذكرنا [1] .

* * *

(٣) راجع ما كتبه الدكتور محمد لبيب شقير فى مجلة منبر الإسلام العدد ١ . من السنة ١٩ وما كتبه الدكتور على عبد الواحد وافى فى هذه المجلة أيضاً العدد ٦ من السنة ١٩ ، والمحاضرة اللتى ألقيناها فى قاعة الإمام محمد عبده فى العدالة الاجتماعية بتاريخ ٢٨ من شوال سنة١٣٨١ .

obeikandl.com